إنّ هـؤلاء المنافقين الّذين يبيّتون من القول ليلاً غير الّذى قالوه للمصطفى ﷺ نهاراً ، لهم انحـرافاتهم الموصولة فى مجال الـقول ، ومن ذلك أنهّم إذا جاءهم ووصلـهم خبرٌ وأمرٌ عن المـسلمين المجاهــدين فى سبيل اللّه تعالى ، وعن سراياهـم وجـيوشهم ، من الأمن والسّلامة والنّصر والفتـح والغنيمة ،أو الخوف والهزيمة والقـتل والجراح ، أذاعوا على ألسنتهم كـلّ خبرٍ قرع آذانهم ، وكانوا صدى كلّ نـاعق ، وأفشوا كلّ كلامٍ جاءهـم ، وشنّعـوا بكلّ أمرٍ وصل إليهم . ومع أنّ جملة أذاع تتعدّى بذاتها وبالباء فيقال أذاع الخبر وبالخبر فإنّ فى مجيء الـباء مع إمكـان الاستغنـاء عنها ما يـصحّ أن يفهـم معه رغبـة هـؤلاء المنافقين فى تجاوز مرحلة مجرّد الإعلان إلى الإذاعة والإفشاء والتّشنيع. عن ابن عبّاس : أذاعو به ، يقول : أفشوه وشنّعوا به (١)

إنّ الآية الكريمة تنعى على المنافقين إذاعتهم كلّ نبأٍ عن المسلمين ، وإشاعتهم كلّ خبر ، وتشفيهم بإذاعة ما يسوء المؤمنين من أحاديث وأكاذيب. وإنّ الآية الكريمة لترشد هؤلاء المنافقين الى السّلوك القويم تجاه تلك الشّائعات . إنّ أولئك المنافقين لو ردّوا ذلك الأمر ، ولو أعادوا ذلك الخبر ، إلى الرّسول الكريم ﷺ وإلى أولى الأمر من المؤمنين وذوى الرّأي وأصحاب الكلمة منهم لعلمه ذلك الأمر وذلك الخبر الّذين يستنبطونه منهم ويستنبطونه ، ويعرفون حقيقته ومغزاه ، وما يدلّ عليه ويئول إليه ، وما الّذى ينبغى السكوت عنه منه وما الّذى يلزم إذاعته وإشاعته . ومن البيّن أنّ الضّابط لكلّ هذه المواقف من تلك الأقوال والشائعات هو مدى ما يمكن أن يأتي منها من نفعٍ للإسلام والمسلمين ، ويدفع عنهم من ضررٍ وأذى .

والمعروف أنّ سلاح الشّائعات من أخبث أنواع الأسـلحة النّفسيّة لتحطيم المعنويّات ، وأنّ المنافقين فى كلّ زمانٍ ومكـان أكثر المروّجين لتلك الشّائعات ،

(١) تفسير الطبرى ٥ / ١١٤ .

لأنهم هم المنتفعون من إشاعتها فى كلّ الأحوال . وإنّ من فضل اللّه تعالى على المؤمنين أن يكشف لهم جلّ وعلا بعض صفات المنافقين ، ومنها إذاعة كلّ شائعة ، وأن يرشد إلى الكيفيّة الّتى ينبغى أن يكون بها التّعامل مع تلك الشّائعات لئلاّ ينساق المؤمنون بحسن نيّةٍ مع تلك الشّائعات ، وأن يحدّد المصدر الّذى ينبغي أن يستقي المؤمنون منه الأخبار والأنباء .

وكأنّ الآية الكريمة تلقى علينا نحن المسلمين درساً فى مجال الإعلام الإسلامىّ . إنّ علينا نحن المسلمين أن يكون لدينا مصادرنا للمعلومات كي نذيع منها ما يتّفق مع مصالحنا ، وأن نحجب أساساً عن الأسماع مالا خير فيه لنا ، وإنّ علينا أن نتصدّى بكل الوسائل لدحض أباطيل الأعداء ، وكشف شبهاتهم ودحضها، وإحلال النّافع لنا الصّالح فى حقّنا محلّ كلّ زيفٍ وحيف .

إنّ الآية الكريمة تشير إلى شىءٍ من فضل اللّه تعالى علينا نحن المسلمين ومن رحمته أيضاً فى القول : ﴿ ولولا فضل اللّه عليكم ورحمته لاتّبعتم الشّيطان إلاّ قليلاً ﴾ .

إنّ فضل اللّه تعالى عظيم علينا ، ومن ذلك التّنبيه إلى كيد المنافقين ، والإرشاد لكيفيّة التّصدّى لهم ولأمثالهم .

وإنّ رحمة اللّه تعالى الّتى وسعت كلّ شىءٍ وسعتنا نحن المسلمين ، ومن مظاهر تلك الرّحمة التّحذير من الانسياق وراء المنافقين ومن لفّ لفهم ، والإرشاد إلى الاستغفار من كلّ ذنبٍ والتّوبة النّصوح . إنه لولا فضل اللّه تعالى علينا ورحمته جلّ وعلا لاتّبعنا الشّيطان الرّجيم فى مجموعنا ، إلاّ قليلاً منّا ، ممّن عصمهم اللّه تعالى ، وكانوا من عباد اللّه تعالى المخلصين ، الّذين لم يجعل اللّه تعالى للشيطان الرّجيم عليهم من سلطان . إنّ المؤمنين يستطيعون بفضلٍ من اللّه تعالى ونعمة أن يلحقوا بركب أولئك المنعم عليهم حينما

يستمسكون بتعاليم القرآن الكـريم وتعاليم خاتم النبيّين وأشرف المرسلين محمّد ابن عبد اللّه ﷺ .

وإليك بعضاً من أحاديث المصطفىﷺ فى هـذا الشّأن .

روى مسلـم عن أبى هـريرة عن النّبى ﷺ قـال : كفى بالمـرء كذباً أن يحدّث بكلّ ما سـمع (١) وفى الصّحيحين عن المغيرة بـن شعبة أنّ رسول اللّه ﷺ نهى عن قيل وقال . أى الّذى يكثر مـن الحديث عمّا يقول النّاس من غير تثبّت ولا تدبّر ولا تبيّن (٢) وفى الصّحيـح : من حدّث بحديث وهـو يرى أنّه كذب فهو أحد الكاذبين (٣) وإليك حديث عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فى سبب نزول الآية الكريمة ، ذلك الحديث المتّفق على صحّته حين بلغه أنّ رسول اللّه ﷺ طلّق نسـاءه فجاء من منزله حـتّى دخل المسجد فوجد الـنّاس يقولون ذلك فلم يصبر حتّى استأذن على النّبى ﷺ فاستفهمه : أطلّقت نساءك ؟ فقال : لا . فقلت : اللّه أكبر . وذكر الحديث بطوله .

وعند مـسلم فقلت : أطـلّقتهنّ فقال : لا . فـقمت على باب المـسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلّق رسول اللّه ﷺ نساءه .

ونزلـت هـذه الآية : وإذا جـاءهـم أمـرٌ من الأمن أو الخوف أذاعـوا به ولوردّوه إلى الرّسول وإلـى أولى الأمر منهم لعلـمه الّذين يستنبطـونه منهم . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٥٢٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٥٣٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٥٠٣ .

ومعنى يستنبطونه أى يستخرجونه من معادنه (١) وكلّ مستخرِجٍ شيئاً كان مستتراً عن أبصار العيون أو عن معارف القلوب فهو له مستنبط . يقال : استنبطت الرّكيّةإذا استخرجت ماءها . ونَبَطْتُها أَنْبُطُها . والنَّبَط : الماء المستنبط من الأرض (٢) .

إنّ المنافقين أنفسهم إنّما كان وجووهم دليلاً على قوّة الإسلام المطّردة النّماء، وإنّ من وسائل دفاعهم عن ذواتهم أن يَحُولُوا بين المسلمين وبين أن تأخذ طاقتهم القتاليّة منتهى مدّها . وإنّ من سائل المنافقين لذلك تثبيط المسلمين بكلّ الوسائل ومن بينها إطلاق الشّائعات المغرضة وإعلان الحرب النّفسيّة المثبّطة للهمم . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتحثّ فى المقابل على القتال فى سبيل اللّه تعالى فإلى

الآية رقم (٨٤)

قال تعالى : فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يقاتل فى سبيل اللّه تعالى . ومع أنّ المصطفى ﷺ فى كلّ حركاته وسكناته إنّما يريد وجه ربّه الأعلى ، وفى مقدّمة كلّ ذلك الجهاد ،فإنّ الآية الكريمة فى أمرها له عليه الصّلاة والسّلام بالقتال تقيّده بأنّه فى سبيل اللّه تعالى . وإذا كان قتال المصطفى ﷺ لا يكون إلاّ فى سبيل اللّه تعالى فينبغى أن يكون قتال كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّديّة من أجل هذه الغاية النّبيلة ذاتها .

والآية الكريمة تقول للمصطفى ﷺ : ﴿ **لا تُكَلَّف إلاّ نفسك** ﴾ فليس المصطفى ﷺ مكلّفاً إلاّ بنفسه بأن يلزمها بالقتال فى سبيل اللّه تعالى لأنّ القتال فرض عينٍ فى حقّه عليه الصّلاة والسّلام . ولو فُرِض أنّ أحداً لم يستجب

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٠ .
(٢) تفسير الطّبرى ٥/ ١١٥ .

لدعوته ﷺ إلى القتال لكان لازماً عليه الصّلاة والسّلام أن يذهب وحده إلى القتال . إنّ القتال فرض عينٍ وواجبٌ عليه ﷺ فى كلّ الأحوال ، وليس الأمر كذلك فى حقّ أفراد الأمّة المحمّديّة ، تماماً كما كان قيام اللّيل واجباً عليه ﷺ وليس كذلك أمّته عليه الصّلاة والسّلام . وقد جاءت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى فى سورة الإسراء (١) : ﴿ **أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق اللّيل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً . ومن اللّيل فتجهّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً** ﴾ .

وإذا كان المصطفى ﷺ مكلّفاً بالقتال ، فإنّه كذلك مكلف بأن يحرّض المؤمنين على القتال للغاية النّبيلة ذاتها ويحثّهم ويشجّعهم عليه .

وتبيّن الآية الكريمة الحكمة من مباشرة المصطفى ﷺ القتال بذاته الشريفة وحضّ المؤمنين عليه : ﴿ **عسى اللّه أن يكفّ بأس الّذين كفروا** ﴾ وعسى من اللهّ تعالى واجبة (٢) والمعنى أنّ ربّ العزّة سيكفّ بأس الّذين كفروا ويمنع سطوتهم ويكسر شوكتهم حينما يقاتل المصطفى ﷺ والمؤمنون الّذين كفروا . ما أهون الكافرين على اللّه تعالى وما أذلّهم وأحقرهم ولكنّ اللّه سبحانه وتعالى، لحكمةٍ بالغة ، جعل المصطفى ﷺ والمؤمنين سوط عذابه للكافرين ، وكى ينالوا ثواب المجاهدين ، وكى يتّخذ جلّ وعلا منهم شهداء .

وإذا كان المصطفى ﷺ والمؤمنون حينما يقاتلون الكافرين يذلّون معاطسهم ويشرّدون من خلف الكافرين ممّن هم على شاكلتهم ، فإنّ الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة : ﴿ **واللّه أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً** ﴾ تقرّر أنّ اللّه سبحانه يفوق بأسه وبطشه بأس الكافرين وبطشهم ، كما تقرّر أن اللّه سبحانه

(١) الآية ٧٨ ، ٧٩ وانظر تأملات فى سورة الإسراء للمؤلف ٢٦٤ .

(٢) تفسير الطبرى ٥/١١٧ .

وتعالى يفوق تنكيله تنكيل المؤمنين بالكافرين .

والتّنكيل والنّكال الفعل الّذى يمنع المنكّل به من المعاودة ، ويمنع غيره من إتيان مِثْلِ صنيعه ، والنّون والكاف واللاّم أصلٌ صحيحٌ يدلّ على منعٍ وإمتناع، وأصل ذلك النّكل بمعنى القيد وجمعه أنكال لأنّه يَنْكُل أى يمنع (١)

روى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول اللّه ﷺ : من آمن باللّه ورسوله وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة وصام رمضان كان حقّاً على اللّه أن يدخله الجنّة هاجر فى سبيل اللّه أو جلس فى أرضه الّتى ولد فيها . قالوا يا رسول اللّه ، أفلا نبشّر النّاس بذلك ؟ فقال : إنّ فى الجنّة مائة درجة أعدّها اللّه للمجاهدين فى سبيل اللّه بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض . فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس فإنّه وسط الجنّة وأعلى الجنّة ، وفوقه عرش الرّحمن ، ومنه تفجّر أنهار الجنّة (٢) وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرىّ أنّ رسول اللّه ﷺ قال : يا أبا سعيد من رضي باللّه ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد ﷺ رسولاً ونبيّاً وجبت له الجنّة . قال : فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علىّ يا رسول اللّه ففعل ، ثمّ قال رسول اللّه ﷺ : وأخرى يرفع اللّه العبد بها مائة درجة فى الجنّة ما بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض ، قال : وما هى يا رسول اللّه ؟ قال : الجهاد فى سبيل اللّه (٣) .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة ذات علاقة بالمسئولية الملقاة على عاتق المصطفى ﷺ فى ميدان الجهاد فى سبيل اللّه تعالى وعلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّدية . وإنّ الآية الكريمة التّالية كذلك تأخذ بسببٍ من هذه المسئولية

(١) انظر معجم المقاييس اللغة « نكل » ٥/ ٤٧٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣١ .

فإلى

الآية رقم (٨٥)

قال تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة الّتى حثّت على الجهاد فى سبيل اللّه تعالى من أجل كسر شوكة الكافرين أنّ اللّه سبحانه وتعالى ﴿ أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً ﴾. وقد قال تعالى (١) : ﴿ ولويشاء اللّه لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض. والّذين قُتلوا فى سبيل اللّه فلن يُضِلّ أعمالهم . سيهديهم ويُصْلِحُ بالهم . ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم ﴾ وهذه الآية الكريمة الّتى تحثّ على الشّفاعة الحسنة وعلى كسب ثوابها ، وتنهى عن الشّفاعة السّيّئة وعن اكتساب عقابها ، تبيّن القدرة المطلقة للذّات العليّة . وبهذا يصحّ القول : إنّ المسئوليّة هى الرّباط الّذى يربط بين الآيتين الكريمتين .

إنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ من يشفع شفاعةً حسنةً يكن له نصيبٌ منها ﴾ تقرّر أنّ من يشفع شفاعةً حسنةً موافقةً لتعاليم الإسلام ، ومن يجعل صاحب الحاجة الواحدّ الفردَ الفذَّ الوِتْرَ شفعاً وثانى اثنين يكن له حظٌّ من ثواب تلك الشفاعة وثواب من عمل بها إلى يوم القيامة . كما تقرّر الآية الكريمة فى القول : ﴿ ومن يشفع شفاعةً سيّئةً يكن له كِفْلٌ منها ﴾ أنّ من يشفع بعكس الأوّل شفاعةً سيّئةً مخالفةً لتعاليم الإسلام يكن له نصيبٌ من وزْر تلك الشّفاعة ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

ومعنى القول : ﴿ وكان اللّه على كلّ شىءٍ مقيتاً ﴾ وكان اللّه تعالى

(١) سورة محمد ٤ ـ ٦ .

دائماً وأبداً على كلّ شيء أراده قديراً (١) ومقتدراً فيجازى كلّ أحد بما عمل(٢) ثبت فى الصّحيحين عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : اشفعوا تؤجروا ، ويقضى اللّه على لسان نبيّه ما شاء (٣) .

وإذا كانت الشّفاعة الحسنة من وسائل ائتلاف القلوب ، فإن إفشاء السّلام يُفْضى إلى الغاية ذاتها . وعن السّلام تحدّثت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآية رقم (٨٦)

قال تعالى: وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

تأمرنا الآية الكريمة بأنّا إذا حيّينا بتحيّة الإسلام أن نحيّى من حيّانا بأحسن منها أو بأن نردّها فى الحدّ الأدنى . عن الحسن قال : السّلام تطوّع والرّدّ فريضة (٤) أىْ إذا سلّم عليكم المسلم فردّوا عليه أفضل ممّا سلّم ، أو ردّوا عليه بمثل ما سلّم . فالزّيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة (٥) وعن سلمان الفارسىّ قال : جاء رجلٌ إلى النّبىّ ﷺ فقال : السّلام عليك يا رسول اللّه . فقال : وعليك ورحمة اللّه . ثمّ جاء آخر فقال : السّلام عليك يا رسول اللّه ورحمة اللّه . فقال له رسول اللّه : وعليك ورحمة اللّه وبركاته . ثمّ جاء آخر فقال : السّلام عليك يا رسول اللّه ورحمة اللّه وبركاته . فقال له : وعليك . فقال له الرّجل : يا نبىّ اللّه ، بأبى أنت وأمى ، أتاك فلانٌ وفلانٌ فسلّما عليك

(١) تفسير الطبرى ٥/٤١٨ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٣١ .
(٤) تفسير الطبرى ٥/ ١٢٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ١/٥٣١ .

فرددت عليهما أكثر ممّا رددت عليّ فقال : إنّك لم تدع لنا شيئاً . قال اللّه : وإذا حيّيتم بتحيّةٍ فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها ، فرددناها عليك (١) ويعلّق الطّبريّ قائلاً (٢) : « فإن قال قائل : أفواجبٌ ردّ التّحيّة على ما أمر اللّه به فى كتابه؟ قيل: نعم، وبه كان يقول جماعةٌ من المتقدّمين » ويعلّق ابن كثير(٣) على قول الحسن البصريّ : السّلام تطوّع والرّدّ فريضة ، « وهذا الّذى قاله هو قول العلماء قاطبة : إنّ الرّدّ واجبٌ على من سلّم عليه ، فيأثم إن لم يفعل ، لأنّه خالف أمر اللّه فى قوله : فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها . وقد جاء فى الحديث الّذى رواه أبو داود بسنده إلى أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : والّذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا . أفلا أدلّكم على أمرٍ إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السّلام بينكم »

وإنّ التّذييل فى الآية الكريمة : ﴿ إنّ اللّه كان على كلّ شىءٍ حسيباً ﴾ يقرّر مسئوليّة من ألقى عليه أخوه المسلم السّلام : إنه سوف يحاسبه اللّه تعالى المحاسب (٤) على كلّ شىءٍ ويجازيه ، فإن امتثل أوامر اللّه تعالى وأوامر رسوله ﷺ فردّ السّلام وأحسن الرّدّ أثيب ، وإلاّ عوقب بمقدار عدم امتثاله لتلك الأوامر . وكما يحاسب المرء على ردّ السّلام يحاسَبُ على كلّ قولٍ وفعل يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود . وإلى هذا المعنى أشارت

الآية رقم (٨٧)

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

(١) تفسير الطبرى ٥/ ١٢٠ .

(٢) تفسير الطبرى ٥/ ١٢٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٢ .

(٤) الجلالين .

تقرّر الآية الكريمة أنّه لا إلَه إلاّ اللّه وحده لا شريك له الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر ، فيجب عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وطاعته فى كلّ ما أمر به ، ونهى عنه وطاعة رسوله ﷺ الّذى لا ينطق عن الهوى ، والذى يبلّغ عن ربّه جلّ وعلا ﴿ **اللّه لا إله إلاّ هو** ﴾ .

وبشأن جمع الخلائق يوم القيامة الّذى لا شكّ فيه من أجل الحساب فالجزاء فى قوله تعالى : ﴿ **ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾ يلفت النّظر مجىء اللام الموطّئة للقَسَم فى القول : ﴿ **ليجمعنّكم** ﴾ فليس الكلام بسيطاً ولا عادياً ولكنّه الكلام المؤكّد بالقَسَم . وإذا كان الجمع بمعنى ضمّ الشّىء بتقريب بعضه مِنْ بعض (١) وكان الجمع هنا متعلّقاً بالخلائق الّذين يجمعهم اللّه تعالى يوم القيامة من أجل فصل الحساب ، فإنّ الّذى يلفت النّظر تعدّى جملة ليجمعنّكم بحرف الجرّ إلى مع إمكان الاستغناء عنه ، وبذلك تفيد الجملة معنيين اثنين ، أحدهما جمع الخلائق ، وهو المعنى الّذى تفيده الجملة بذاتها ، وآخرهما السَّوْق والحشر ، وهو المعنى الّذى تفيده الجملة وتتضمّنه بسبب مجىء حرف الجرّ إلى .

ومع أنّ التّذييل : ﴿ **ومن أصدق من اللّه حديثاً** ﴾ يتعلّق فى المقام الأوّل بيوم القيامة الّذى لا يؤمن به الكافرون والمنافقون ، فإنّه وراء ذلك ينسحب على كلّ ما جاء فى القرآن الكريم ، ويؤكّد معنى الآية الكريمة فى هذا القسْم : ﴿ **أفلا يتدبرّون القرآن ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ إنّ القرآن الكريم مستقيم اللّفظ جميلَه ، صادق المعنى جليله . ونستطيع أن نتبيّن الرّباط الوثيق بين القول هنا : ﴿ **ومن أصدق من اللّه حديثاً** ﴾ وبين القول عن المنافقين والكافرين فى هذا القِسْم من قبل : ﴿ **فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً** ﴾ .

---

(١) مفردات الراغب الأصفهانى (جمع) ٩٦ .

(١٢)

ما لكم فى المنافقين فئتـــين ؟

الآيات (٨٨ ـ ٩١)

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ
مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ
السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

تحدّثت آيات القسم السّابق كثيراً عن المنافقين . إنّهم يثبّطون المؤمنين عن القتال وهم يشمتون بالمسلمين حينما تصيبهم مصيبة ، ويفرحون لأنّهم نجوا من المصيبة ، وهم حينما يصيب المسلمين فضلٌ من اللّه تعالى يتمنّون لو كانوا مع المسلمين ساعة توزيع الغنيمة كى ينالوا نصيبهم . وهؤلاء المنافقون حينما تصيبهم مصيبة يقولون إنّها بسبب وجود المصطفى ﷺ بين ظهرانَيْهم ويجهلون أنّها أصابتهم بإذن اللّه تعالى بسبب ذنوبهم . والمنافقون يعلنون الطّاعة للمصطفى ﷺ ويُضْمِرون العصيان ، ولا يتدبّرون القرآن الكريم ، ويُشْنُون على المسلمين حروباً نفسيّة عنيفة بقصد تثبيطهم عن القتال فى سبيل اللّه تعالى

وتتحدّث كلّ آيات هذا القسم التّالى الأربع عن المنافقين . والآية الكريمة الأولى تنكر على المؤمنين أن يختلفوا حول المنافقين فيذهب بعضهم إلى أنّهم مؤمنون ، ويذهب بعضهم الآخر إلى أنّهم كافرون . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّهم كافرون وأنّ اللّه سبحانه وتعالى قد زادهم ضلالاً إلى ضلال بأن أركسهم وأرجعهم إلى أعماق الكفر بسبب ما اكتسبوا من سيئات . وتنكر الآية الكريمة على المؤمنين كذلك أن يريدوا هداية من أضلّه اللّه تعالى ، وتقرّر أنّ من أضلّه اللّه تعالى فلن تجد له سبيلاً إلى الهدى ولا طريقاً إلى الفلاح .

والآية الكريمة الأخرى تعمّق ما هو معروفٌ عن المنافقين من العمل فى الظّلام فهم يتمنّون لو تحوّل المؤمنون كفّاراً مثلهم ، ولا يتجاوز المنافقون التّمنّى إلى القول أو العمل . وتنهى الآية الكريمة المؤمنين عن اتّخاذ هؤلاء المنافقين أولياء حتّى يهاجروا فى سبيل اللّه تعالى . فإن تولّى المنافقون وأصّروا على الكفر فعلى المؤمنين أن يأخذوهم بشدّة ، ويحكموا وثاقهم ، ويقتلوهم حيث وجدوهم ، كما تنهاهم عن اتّخاذ واحدٍ منهم وليّاً أو نصيرا .

والآية الكريمة الثّالثة تستثنى أولئك الّذين انضّموا إلى قومٍ بينهم وبين المؤمنين عهدٌ مؤكدّ ، ووصلوا إليهم فعلاً ، فلهم حكم من آتوكم الميثاق . كما

تستثنى الآية الكريمة أولئك الّذين جاءوا إلى المؤمنين فعلاً مسالمين ، وقد ضاقت صدورهم أن يقاتلوا المؤمنين ، أو يقاتلوا قومهم . إنّ من رحمة اللّه تعالى بالمؤمنين أنّه جلّ وعلا لم يسلّطهم على المؤمنين فلم يقاتلوهم . فإن اعتزل أولئك القوم قتال المؤمنين وألقوا إليهم الانقياد ، فما جعل اللّه تعالى للمؤمنين عليهم سبيلاً بقتلهم وأخذ أموالهم وسبي نسائهم .

والآية الكريمة الأخيرة تتحدّث عن المنافقين الّذين يظهرون للمؤمنين الإيمان وللمشركين الشّرك ، والّذين كلّما رُدّوا إلى الفتنة والشّرك وصلوا إلى أعماقهما . إنّ هؤلاء إن لم يعتزلوا قتال المؤمنين ، ويلقوا الانقياد ، ويكفّوا أيديهم عن مساعدة أعداء اللّه تعالى ، فعلى المسلمين أن يأخذوهم بشدّة ، ويقتلوهم حيث ثقفوهم ووجدوهم ، وأولئكم قد جعل اللّه تعالى للمؤمنين سلطاناً مبيناً عليهم .

والآيتان الكريمتان الأخيرتان نسختهما الآية الكريمة الخامسة من سورة التّوبة.

الآية رقم (٨٨)

قال تعالى :

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

سبب النّزول :

حينما ننظر إلى ما قيل فى أسباب النّزول نستطيع أن نتبيّن أنّ منها ما له عَلاقةٌ بهذه الآية الكريمة ومنها ما له عَلاقة بآية أخرى فى هذا القسم .

عن زيد بن ثابت أنّ رسول اللّه ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناسٌ خرجوا

معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا ، هم المؤمنون . فأنزل الله : فما لكم فى المنافقين فئتين . فقال رسول الله ﷺ : إنّها طيّبة وإنّها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد . أخرجاه فى الصّحيحين من حديث شعبة(١) ورواية البخارى : كما تنفى النّار خبث الفضّة . وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى وقعة أحد أنّ عبد الله ابن أبيّ ابن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش ، رجع بثلاثمائة ، وبقى النّبىّ ﷺ فى سبعمائة(٢) ومن البيّن علاقة هذه الأقوال بهذه الآية الكريمة الأولى . وهذا الحديث رواه كذلك الإمام أحمد(٣) .

وقال آخرون : بل نزلت فى اختلاف كان بين أصحاب رسول الله ﷺ فى قوم كانوا قدموا المدينة من مكّة فاظهروا للمسلمين أنّهم مسلمون ثمّ رجعوا إلى مكّة وأظهروا لهم الشّرك(٤) .

قال مجاهد فى هذه الرواية : هم قومٌ خرجوا من مكّة حتّى جاءوا المدينة يزعمون أنّهم مهاجرون ، ثمّ ارتدّوا بعد ذلك ، فاستأذنوا النّبىّ عليه السّلام أن يخرجوا إلى مكّة ليأتوا ببضائع لهم يتّجرون فيها ، فاختلف فيهم المؤمنون : فقائلٌ يقول : هم منافقون ، وقائل يقول : هم مؤمنون . فبيّن الله تعالى نفاقهم وأنزل هذه الآية ، وأمر بقتلهم فى قوله : فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم . فجاءوا ببضائعهم يريدون هلال بن عويمر الأسلمى وبينه وبين النّبىّ ص حلف ، وهو الّذى حَصِر صدره أن يقاتل المؤمنين ، فرفع عنهم القتل بقوله تعالى : ﴿ إلاّ الّذين يصلون إلى قوم ﴾ . الآية(٥) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٢، وانظر صحيح البخارى ٦/ ٥٩ وتفسير الطبرى ٥/ ١٢١ وأسباب النّزول للواحدى ١٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٢ .

(٤) تفسير الطبرى ٥/ ١٢١ .

(٥) أسباب النّزول ١٩٩ وتفسير الطّبرىّ ٥/ ١٢١ .

ومن البيّن عَلاقة هذا الرّأى بنزول الآيات الثلاث الأول .

وقال آخرون : بل كان اختلافهم فى قومٍ من أهل الشّرك كانوا أظهروا الإسلام بمكّة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين(١) .

عن ابن عبّاس ، قوله : فما لكم فى المنافقين فئتين . وذلك أنّ قوماً كانوا بمكّة قد تكلّموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكّة يطلبون حاجةً لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمّد عليه السّلام فليس علينا منهم بأس ، وأنّ المؤمنين لمّا أخبروا أنّهم قد خرجوا من مكّة قالت فئةٌ من المؤمنين : اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم فإنّهم يظاهرون عليكم عدوّكم . وقالت فئةٌ أخرى من المؤمنين : سبحان اللّه أو كما قالوا : أتقتلون قوماً تكلّموا بمثل ما تكلّمتم به ، أمن أجل أنّهم لم يهاجروا ويتركوا ديارهم تستحلّ دماؤهم وأموالهم لذلك ؟ فكانوا كذلك فئتين والرسول عليه السّلام عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شئ فنزلت : ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين واللّه أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضلّ اللّه ﴾ الآية(٢) .

ومن البيّن عَلاقة هذا الرّأى بالآية الكريمة الأولى ، وبالآية الكريمة التّالية فى القول : ﴿ فلا تتّخذوا منهم أولياء حتّى يهاجروا فى سبيل اللّه ﴾ وبالآية الكريمة الرّابعة فى القول : ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ إنّهم من أجل ذلك يعلنون الإسلام مرّةً والكفر أخرى .

وهنالك أقوالٌ أخرى فى سبب النزول.

وممّا سبق يتبيّن ارتباط كلٍّ من الآراء السّابقة ببعض هذه الآيات الأربع ممّا يصحّ أن يُفْهَمَ معه أن الآيات الأربع نزلت جملةً واحدة . واللّه تعالى أعلم .

فى أسلوب الاستفهام الإنكارىّ تسأل الآية الكريمة المؤمنين : ما شأنكم

---

(٦) تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٢٢ .

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٢٢ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٣٢ .

أيّها المؤمنون وما خطبكم حينما انقسمتم تجاه المنافقين فريقين ، فريقاً يقول بإيمانهم بناءً على أقوالهم الّتى يتظاهرون فيها بالإيمان ، وفريقاً يقول بكفرهم بناءً على أفعالهم الّتى تدلّ على كفرهم وشقّ عصا الطّاعة على المؤمنين . ولمّا كان المنافقون: ﴿مثلهم كمثل الّذى استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب اللّه بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون﴾[1] ، وكان المنافقون بإعلانهم الدّخول فى الإسلام قد تسّرب إلى نفوسهم شئٌ من نوره ، ثمّ ذهب هذا النّور إلى غير رجعة بسبب عودتهم إلى الكفر وإلى ظلماته الأشدّ من ذى قبل ، فقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه المعانى .

إنّ المنافقين أعلنوا إيمانهم ثمّ انسلخوا منه وعادوا إلى الكفر وعملوا بوسوسته وكسبوا السّيّئات فزادهم اللّه تعالى عمى بصيرة إلى عماهم وردّهم إلى أعماق الضّلال وأركسهم إلى أحطّ دركات الكفر : ﴿ فمالكم فى المنافقين فئتين واللّه أركسهم بما كسبوا ﴾ والرّكْس : قلب الشّئ على رأسه وَرَدُّ أوّله إلى آخره ، يقال : أركستُه فَرُكِس وارتكس فى أمره . قال تعالى : ﴿ واللّه أركسهم بما كسبوا ﴾ ، أى ردّهم إلى كفرهم[2] .

أما وقد ردّ اللّه تعالى المنافقين إلى أعماق الكفر بسبب عودتهم إليه واكتسابهم السّيّئات فقد كان فى الآية الكريمة إنكارٌ آخر على المؤمنين الّذين قالوا بإيمان المنافقين أن يريد هؤلاء المؤمنون أن يهدوا من أضلّه اللّه تعالى وقد قال عزّ من قائل[3]: ﴿ من يضلل اللّه فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾. قال تعالى خطابًا للمؤمنين : ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضلّ اللّه ﴾ .

وإنّ الجزئية الكريمة الأخيرة فى الآية الكريمة لتجيب على الاستفهام الإنكارىّ فى الجزئيّة الكريمة السّابقة فتقرّر أنّ من يضلله اللّه تعالى فلن تجد له

(٢) سورة البقرة ١٧ ، ١٨ .

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى «ركس» ٢٠٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٨٦ .

أيّها المؤمن المخاطب فى كلّ زمان ومكان ابتداءً بحبيبك المصطفى ﷺ سبيلاً إلى الهدى وطريقاً إلى الحقّ . قال تعالى : ﴿ ومن يضلل اللّه فلن تجد له سبيلا ﴾ والمعروف أنّ « لن » تفيد النّفى على التّأبيد .

إنّ الآية الكريمة التّالية لتبيّن السبب فى إضلال اللّه تعالى المنافقين وفى وجوب اليأس من اهتدائهم فإلى .

الآية رقم (٨٩)

قال تعالى :

وَدُّوا۟ لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

كلّ نوايا المنافقين تجاه الإسلام وأقوالهم سيّئة ، وهم لا يعملون إلاّ في الظّلام وفى الخفاء . ولمّا كان المنافقون كافرين على الحقيقة فمن الطّبيعىّ أن يسوءهم ازدياد عدد المؤمنين وانتشار الإسلام ، وأن يسرّهم كلّ ما يسوء الإسلام والمسلمين . ومن الطّبيعىّ أن يرغب المنافقون فى تحوّل المؤمنين كافرين أو منافقين ، وهنا نتبيّن أنّ موقف المنافقين من هذه الرّغبة هو موقف الذّليل الّذى أذلّه الإسلام ووضع أنفه فى الرّغام ، لهذا فإنّ منتهى ما يفعله المنافقون تجاه هذه الرّغبة السّيّئة هو النّوايا الخسيسة، والأمانى الحبيسة ، والرّغائب الخبيثة . قال تعالى : ﴿ ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ .

وينطبق على المنافقين فى هذه الأمانى السّيّئة قول عثمان بن عفّان رضى اللّه عنه : ودّت الزانية لو زنا النّساء كلّهن[1] إنّ هؤلاء المنافقين الكافرين فى الحقيقة يتمنّون لو أنّ المؤمنين صادقي الإيمان تحوّلوا كافرين مثلهم بأن يرتدّوا

(١) الأمر بالمعروف والنّى عن المنكر لابن تيمية ٤٦ .

عن الإسلام والعياذ باللّه ، وبالتّالى يكون الجميع فى الكفر سواء . وما الّذى يضير أولئك المنافقين لو عملوا العكس فتحولوا مسلمين للّه تعالى حقًّا ، ولكنه عمى القلوب الّتى فى الصّدور والعياذ باللّه .

ونحن نستطيع أن نتبيّن الفرق بين المنافقين والكافرين ولجوء الأوّلين إلى الأمانى الزّائفة ، وصراحة الأخيرين فى الكفر وفى الصّدّ عن سبيل اللّه تعالى حينما نقارن بين القول هنا : ﴿ ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً ﴾ وبين القول مثلاً فى سورة محمّد[١] : ﴿ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم ﴾ .

ومن رحمة اللّه تعالى الواسعة الّتى وسعت المنافقين أنفسهم كى يصلحوا من خطئهم وكيلا يفتضحوا على رءوس الأشهاد ، والّتى وسعت المؤمنين كيلا ينخدعوا ، أنّ الآية الكريمة تطلب من المنافقين الدّليل العملىّ على إيمانهم الّذى يعلنون ويزعمون ، كى يكون المؤمنون على بيّنة من أمرهم ، بأن يهاجر المنافقون من بلاد الشّرك إلى بلاد الإيمان وداره ، إلى المدينة المنوّرة حيث المصطفى ﷺ والمؤمنون . قال تعالى ﴿ فلا تتّخذوا منهم أولياء حتّى يهاجروا فى سبيل اللّه ﴾ .

إنّ الجزئيّة الكريمة تنهى المؤمنين أن يتّخذوا المنافقين أولياء وأوفياء وأصدقاء حتّى يهاجروا فى سبيل اللّه تعالى من بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان ، وقد قال عزّ من قائل فى سورة النّساء[٢] هذه : ﴿ ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من ديارهم ما فعلوه إلاّ قليلٌ منهم . ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتا . وإذا لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيما . ولهديناهم صراطاً مستقيما ﴾.

إنّ هؤلاء المنافقين إن لم يهاجروا فى سبيل اللّه تعالى ، وإن لم يعطوا

---

(١) الآية ١ .

(٢) الآيات ٦٦ - ٦٨ .

الدّليل العملى على الإيمان الّذي يعلنون ، وإنْ تولّوا وأداروا لداعيهم إلى طريق الحقّ أدبارهم ، وقد عرفنا أنّ التّولي يمثل أعلى درجات الإعراض ، فخذوهم أيّها المؤمنون أخذاً شديداً بأيديكم وأسروهم وأحكموا شدّ وثاقهم واقتلوهم فى أىّ مكان ثقفتموهم فيه وصادفتموهم ووجدتموهم . ومن المعروف أنّ القتل يمثل أبعد مراحل التّمكّن من الخصم ، وذلك هو الّذى تأمر المؤمنين به الآية الكريمة .

ولمّا كان أخذ كلّ المنافقين وقتلهم ليسا ممكنين ، فلابدّ من وجود البقيّة الباقية منهم الّتى يزداد نفاقها عمقاً بزيادة إظهار ما لا تؤمن به ولا تصدّق كى تسلم دماؤها وأموالها وأعرضها ، فإن الآية الكريمة تنهى المؤمنين عن اتّخاذ هذه الفئة الباقية أولياء وأصدقاء وأخلاّء ، وعن اتّخاذها نصراء وحلفاء ووزراء . قال تعالى : ﴿فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتّخذوا منهم وليًّا ولا نصيراً﴾.

ولمّا كانت العهود والمواثيق والأحلاف وما إلى ذلك لها ثِقلها فى العَلاقات الدّوليّة فى تلك الأثناء وفى تلك الفترة المدنيّة المبكّرة نسبيًّا من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة ، فإنّ الآية الكريمة التّالية أخذت فى الاعتبار تلك المواثيق فإلى.

الآية رقم (٩٠)

قال تعالى :

إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

أمرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين أن يأخذوا المنافقين الّذين لم يهاجروا

ويأسروهم ويقتلوهم . وتستثنى هذه الآية الكريمة من هذا الحكم فريقين اثنين.

الفريق الأول هم أولئك الّذين وصلوا وانضمّوا إلى قومٍ بينهم وبين المؤمنين ميثاقٌ وعهدٌ مؤكّد ، فإن هؤلاء الواصلين واللاّحقين ينسحب عليهم تَبَعاً ، ما انسحب على المعاهدين أصلاً ، ماداموا مستمسكين بعهدهم المؤكّد مع المسلمين ولم ينقضوا الميثاق . والفريق الآخر الّذى تستثنيه الآية الكريمة هم أولئك الّذين ضاقت[١] صدورهم أن يقاتلوكم أيّها المؤمنون وينضمّوا إلى قومهم ، وضاقت صدورهم كذلك أن يقاتلوا قومهم وينضّموا إليكم أيّها المؤمنون . إنّ هذا الفريق مذبذبٌ بين الانضمام إلى قومه أو إلى المؤمنين ولم يتّخذ قراراً أيّها المؤمنون بالانضمام إلى قومه ضدّكم .

إنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الّذى جعل هذا الفريق يشعر بضيق الصّدر أن يقاتلكم أو يقاتل قومه معكم ، ولو شاء اللّه سبحانه وتعالى تسليطه لسلّطه عليكم فلقاتلكم وناصبكم العَداء ولكنّ اللّه سبحانه وتعالى سلّم .

فإن اعتزلكم هذا الفريق الآخر فلم يقاتلكم وألقى إليكم الاستسلام[٢] وصالحكم وهادنكم ، فما جعل اللّه سبحانه وتعالى لكم عليهم طريقاً فى القتال والسّباء والغنيمة .

والمعروف أنّ هذه الآية الكريمة وكذلك الآية الكريمة التّالية قد نسختهما الآية الكريمة الخامسة من سورة التّوبة ، قال تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فخلّوا سبيلهم . إنّ اللّه غفورٌ رحيم ﴾[٣] والمعروف أنّ سورة براءة نزلت فى شوّال سنة تسع من الهجرة[٤] واختلف العلماء بشأن الأشهر الحرّم ، فمنهم من ذهب إلى أنّ المراد الأشهر الحرم الأربعة المعروفة وهى ذو القعدة وذو الحجّة والمحرم ورجب والمراد

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٢٥ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٢٥ .
(٣) انظر تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٢٦ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ١٠/ ٤٢.

بانسلاخ الأشهر الحرم انسلاخ شهر محرّم وانتهاؤه . ومنهم من ذهب إلى أنّ المراد بالأشهر الحرم أشهر التّسيير الأربعة الّتى تبدأ بيوم الحجّ الأكبر يوم النّحر حينما قرأ علىٌّ رضى اللّه عنه على المشركين سورة براءة وتنتهى بانتهاء اليوم العاشر من شهر ربيع الآخر(١) .

والّذى يعنينا هنا أن هذه الآية الكريمة الخامسة من سورة التّوبة نسخت الآيتين الكريمتين من سورة النّساء ، والّذى يعنينا كذلك أنّ جمهور العلماء ذهبوا إلى أنّ من كان له مع النّبىّ ﷺ عهدٌ مدّته أقل من أربعة أشهر أو عهدٌ مطلقٌ فإنّ مدّة هؤلاء وهؤلاء أربعة أشهر فقط يسيرون فيها آمنين فى الأرض . وأمّا الّذين لهم عهدٌ مع النّبىّ ﷺ محدّدٌ وتزيد مدّته على أربعة أشهر فإنّ واجب المسلمين أن يتمّوا إلى هؤلاء عهدهم إلى مدّتهم كما جاء فى الآية الكريمة الرّابعة من سورة براءة، شريطة ألاّ ينقصوا المسلمين شيئًا وألاّ يظاهروا عليهم أحدا ، وألاّ ينقضوا عهدا . ونتحوّل الآن إلى .

الآية رقم (٩١)

قال تعالى :

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

هذا الفريق من المنافقين من أشدّهم خبثاً والتواءً وكذبا . إنّ هدفه بنصّ الآية الكريمة أن يأمن على دمه وماله وعرضه من قِبَل كلٍّ من المؤمنين والكافرين . إنّه كى يصل إلى هذه الغاية وكى يأمن جانب المؤمنين هو يعلن الإيمان ويبطن الكفر ، وكى يأمن جانب المشركين هو يعلن الإشراك مع اللّه

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣٣١ وتفسير الطبرى ١٠/٤٢

تعالى سواه . ومن البيّن أنّ ظاهر هذا المشرك كباطنه . قال تعالى: ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ .

وهذا الفريق المنافق الّذى يدّعى الإيمان يعود إلى الكفر بعدد مرّات عودته إلى الكافرين ، ويصل من الكفر إلى أعمق أعماقه . إنّ عدد المرّات يستفاد من القول : «كلّما ردّوا إلى الفتنة» وإنّ الوصول من الكفر إلى أعماقه يستفاد من القول «أُرْكسوا فيها» .

إنّ هذا الفريق الّذى يعلن الإسلام ويبطن الكفر يرشد ربّ العزّة المؤمنين إلى كيفيّة التّعامل معه . إنّه إن لم يعتزل قتال المؤمنين ، ولم يلق إلى المؤمنين الاستسلام والخضوع والانقياد ، ولم يكفّ يده عن مساعدة أعداء المؤمنين فإنّ واجب المؤمنين أن يقتلوه حيث ثقفوه . وحينما تستعمل الآية جملة ثقف فى القول : ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السّلم ويكفّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ ومن معانى الثّقْف الحِذْق فى إدراك الشّئ وفِعْلِه[1] فذلك دليلٌ على أنّه يجب على المؤمنين أن يجتهدوا فى إدراك هذا الفريق من المنافقين وثَقْفه ولَقْفه[2] وأخذه بقوّة أسيراً أو قتيلاً .

وتأكيدا على المسلمين فى التّعامل مع هذا الفريق المذبذب بحزم يجئ القول : ﴿ وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينًا ﴾ والمعنى أنّ أولئك المذبذبين من المنافقين قد جعل الله سبحانه وتعالى للمؤمنين عليهم سلطاناً مبينا وحجّة[3] واضحةً ، وسبيلاً بيّنًا بأن يحرصوا على أخذهم واستئصالهم وقطع دابرهم .

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى «ثقف» ٧٩ .
(٢) لقفه : تناوله بسرعة .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/١٢٧ .

(١٣)

﴿ ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً وحثٌّ
على الجهاد والهجرة والصّلاة ﴾

الآيات (٩٢ ـ ١٠٤)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟
لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾
لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ
ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ

وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾
۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى الْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً
وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ الْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾
وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟
فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ
وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا۟ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ
كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟
فِى ٱبْتِغَآءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

تحدّثت آيات القسم السّابق عن فئاتٍ من المنافقين وأمرت المؤمنين بأن يقتلوا فريقين منهم . الفريق الأوّل الّذى يودّ أن يتحوّل المؤمنون مثله كفّارا ويرفض الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، ويولّى الإسلام دبره ويعلن الكفر . والفريق الآخر الّذى يعلن إيمانه للمؤمنين كى يأمنهم ، ويعلن كفره للكافرين كى يأمنهم ، ويساعد الكافرين ضدّ المؤمنين .

ولمّا كان النّفاق دركات ، وكانت تلك الفترة المبكّرة من حياة الدّعوة الإسلامية بحاجةٍ إلى أن يتثبّت المؤمنون فيها من حقيقة أقوال المنتمين للإسلام وأفعالهم ، فبسبب تلك الملابسات غير العاديّة قد تتشابه أقوال صادقى الإيمان وأفعالهم بمدّعيه لذلك كان فى القِسْم التّالى هذا حديثٌ فى القتل بنوعيه ، الخطأ والعمد ، وحثٌّ للمؤمنين على التّثبت من حقيقة اعتقاد من يقاتلونه ، كيلا يزهقوا نفسًا بغير حقّ .

وكيلا يكون فى حثّ المجاهدين على التّثبت وفى لومهم على التّعجّل فى القتل فتٌّ فى عضدهم وتثبيطٌ لهممهم عن الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ، كان هنالك حديثٌ عن المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى بأموالهم وأنفسهم ، وثناءٌ عليهم ، وعذرٌ لأولى الضّرر ، وحديثٌ عن القاعدين عن الجهاد بعذر ، وعن القاعدين عن الجهاد بغير عذر ، وتفضيلٌ للمجاهدين على القاعدين بعذر درجة ، وعلى القاعدين بغير عذر ، درجاتٍ منه جلّ وعلا ومغفرةً ورحمة .

ولمّا كان من علامات النّفاق ادّعاء الإيمان وعدم الهجرة ، ولمّا كان حال بعض صادقى الإيمان شبيهاً بحال هذا الفريق من المنافقين ، وبقصد ألاّ يختلط حال هؤلاء الصّادقين بحال المنافقين ، يكون فى السّياق حديثٌ مستفيضٌ عن هؤلاء المؤمنين الّذين لم يهاجروا ، وحثٌّ لهم على الهجرة ، ولومٌ عنيفٌ للّذين لم يهاجروا على ألسنة الملائكة الذين تتوفّاهم وقد ظلموا أنفسهم بعدم الهجرة ، وإرشادٌ لمنافع الهجرة ، ووعيدٌ شديدٌ للقادرين على الهجرة ولم يفعلوا بأنّ مأواهم جهنّم وبئس المصير . ويستثنى السّياق من العذاب

المستضعفين من الرّجال والنّساء والوالدان الّذين لا يستطيعون حيلةً ولا يجدون وسيلةً ولا يهتدون سبيلاً ولا يعرفون طريقا .

ويبيّن السّياق منافع الهجرة وفضل اللّه تعالى على المهاجر فى الحياة الأولى بتذليل سبله والتّوسعة عليه ، وفى الحياة الآخرة ، سواءٌ أوصل إلى مهاجَره أم اخترمه الموت فى الطّريق ، فإنّ أجره كبير وثوابه عظيم .

ولمّا كان الجهاد والهجرة محفوفين بالمخاطر ، وكانت الصّلاة أشرف أركان الإسلام بعد الشّهادتين، وكان الجهاد والهجرة يعنيان السّفَر، فقد كان ثمّة حديثٌ عن الصّلاة من زاوية السّفَر ومن زاوية الخوف . إنّ ربّ العزّة أذن لنا فى سفر الطّاعة أن نقصر الصّلاة الرّباعيّة فنجعلها ركعتين اثنتين : ﴿إن خفتم أن يفتنكم الّذين كفروا﴾ وقد ثبت قَصْرُ الصّلاة فى أثناء السّفر مع عدم الخوف بسنّة المصطفى ﷺ.

ودليلاً على أهميّة الصّلاة فى الإسلام باعتبارها عماد الدّين ، وعلى أنّها لا تسقط عن المكلّف بحالٍ من الأحوال يفيض السّياق فى الحديث عن صلاة الخوف حينما يلتقى الجمعان ويلتحم الجيشان . واللّطيف فى الأمر أنّ القرآن الكريم إنّما يفيض فى الحديث عن هذا النّوع من الصّلاة كيلا يذهل المؤمنون فى غمرة القتال عن الصّلاة الّتى تعتبر أهمّ الأركان بعد الشّهادتين وأهمّ العبادات فى الإسلام .

واللّطيف كذلك أنّ السّياق يبيّن بالتّفصيل كيفيّة الصّلاة حينما يكون المجاهدون فى سبيل اللّه تعالى مستقبلى القبلة ، ويكون العدوّ مستدبرها ، وقد صلّى المصطفى ﷺ فى غزواته كذلك ، كما صلّى المصطفى ﷺ وفق كيفيّة أخري للصّلاة حينما كان العدوّ مستقبل القبلة والمؤمنون مستدبريها .

وإنّ السّياق ليؤكّد على السّلاح الذى ينبغى أن يكون ما أمكن محمولاً ، وعلى الحِذر الّذى ينبغى أن يكون دائماً ، وعلى الأمتعة الّتى ينبغى أن تكون محميّةً كيلا يطمع فيها العدوّ فيهتبل - لا سمح اللّه - الفرصة، وينتهز الغفلة .

وإذا كان للصّلاة أوقاتها فإنّ ذكر اللّه تعالى ليس له وقت ، ومن هنا يأمر السّياق بذكر اللّه تعالى فى كلّ الأحوال وفى كلّ الأوقات ذكراً كثيراً .

ولمّا كانت الحروب لا تدوم ، وكانت الصّلاة عماد الدّين ، فقد أمر السّياق بإقامة الصّلاة حال الاطمئنان فى أوقاتها بكلّ شروطها، كما أمر بمواصلة الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ، وذكّر بثواب الجهاد وبإحدى الحسنيين النّصر أو الشّهادة . إنّ أعداء اللّه تعالى يقاتلون فى سبيل الشّيطان ولا مولى لهم وهم يألمون كما يألم المؤمنون ولكنّهم لا يرجون منه تعالى ما يرجو منه تعالى المؤمنون . إنّ كلّ هذه المميّزات فى حقّ المؤمنين أهلٌ لأن تجعلهم أكثر صبراً ومصابرةً ومرابطةً وجهاداً وتقوى ، وأن تجعلهم مستمرّين فى ابتغاء الكفّار ، مواصلين طلب أعداء اللّه تعالى .

الآية رقم (٩٢)

قال تعالى :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

سبب النّزول :

قيل إنّ الآية نزلت بسبب قتل عيّاش بن أبى ربيعة الحارثَ بن يزيد بن

أبى أنيسة العامرىّ لِحنَة[١] كانت بينهما . فلمّا هاجر الحارث مسلمًا لقيه عيّاش فقتله ولم يشعر بإسلامه . فلمّا أُخبِرَ أتى النّبىّ ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، إنّه قد كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت ، ولم أشعر بإسلامه حتّى قتلتُه فنزلت الآية[٢] ومن المعروف أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبّب ، والآية الكريمة تبيّن الحكم فى القتل الخطأ .

إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّه ما ينبغى[٣] لمؤمنٍ يشهد ألاّ إله إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه أن يقتل مؤمناً مثله إلا بأن يكون القتل بطريق الخطأ ، كأن يرمى صيداً فيصيبه ، وكأن يقتله بما لا يقتل غالباً . «فقوله : وما كان ، ليس على النّفى وإنّما هو على التّحريم والنّهى ، كقوله : ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول اللّه ﴾[٤] قال تعالى : ﴿ وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً ﴾ يقول تعالى : ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه كما ثبت فى الصّحيحين عن ابن مسعود أنّ رسول اللّه ﷺ قال : لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد ألاّ إله إلاّ اللّه وأنّى رسول اللّه بإحدى ثلاث ، النّفس بالنّفس ، والثّيب الزّانى ، والتّارك لدينه المفارق للجماعة . ثمّ إذا وقع شئٌ من هذه الثّلاث فليس لأحد من آحاد الرّعيّة أن يقتله وإنّما ذلك إلى الإمام أو نائبه[٥].

وقوله : إلاّ خطأً ، قالوا هو استثناء منقطع[٦] ليس من الأوّل وهو الّذى يكون فيه إلاّ بمعنى لكنْ . والتّقدير : ما كان له أن يقتله البتّة ، لكن إن قتله خطأً فعليه كذا . هذا قول سيبويه والزّجّاج رحمهما اللّه . ومن الاستثناء المنقطع قوله تعالى : ﴿ ما لهم به من علم إلا اتّباع الظّنّ ﴾[٧] وكما قال جرير

---

(١) الحنة والإحنة : الحِقْد .

(٢) تفسير القرطبىّ ١٨٨٣ وانظر أسباب النّزول للواحدى ٢٠٠ ، وتفسير ابن كثير ١/ ٥٣٤ ، وتفسير الطّبرىّ ٥/ ١٢٨ .

(٣) تفسير القرطبىّ ١٨٨١ .

(٤) تفسير القرطبىّ ١٨٨١ .

(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٤ .

(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٤ .

(٧) تفسير القرطبىّ ١٨٨٢ .

ابن عطيّة :

من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ على الأرض إلا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّل[١]

كأنّه قال : لم تطأ على الأرض إلا أن تطأ ذيل البرد[٢] وليس ذيل البرد من الأرض[٣] .

وتبيّن الآية الكريمة بعد ذلك الأحوال المختلفة للقتل وللحكم . وهذه هى أولى الحالات . قال تعالى ﴿ ومن قَتَلَ مؤمناً خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ وديةٌ مسلّمةٌ إلى أهله إلاّ أن يصدّقوا ﴾ .

وإنّ أوّل ما يلفت النّظر بشأن الجزئيّة الكريمة أنّها يجئ فيها لفظ «خطأ» ولا تستغنى عنه ، وفى ذلك تعميقٌ لمعنى الجزئيّة الكريمة السّابقة، فلا ينبغى لمؤمن أن يقتل بحال من الأحوال مؤمناً إلا خطأ . إنّ من قتل مؤمناً خطأً فعليه تحرير رقبة مؤمنة[٤] وهذه هى الكفّارة الّتى أوجبها اللّه تعالى فى كفّارة القتل والظّهار أيضًا[٥] واختلف العلماء فيما يجزئ منها ، فقال ابن عبّاس والحسن والشّعبىّ والنّخَعِىّ وقتادة وغيرهم : الرّقبة المؤمنة هى الّتى صلّت وعَقلت الإيمان، لا تجزئ فى ذلك الصّغيرة . وهو الصّحيح فى هذا الباب . قال عطاء ابن أبى رباح : يجزئ الصّغير المولود بين المسلمين[٦] .

والدّية ما تُعْطَى عوضاً عن دم القتيل إلى وليّه[٧] وثبتت الأخبار عن رسول اللّه ص بأنّ الدّية مائةٌ من الإبل[٨] .

إنّ على من قتل أخاه المؤمن خطأً الكفّارة والدّية المدفوعة إلى أهل القتيل، «إلا أن يصّدّقوا» ، فأدغمت التّاء فى الصّاد . والتّصدّق الإعطاء ،

(١) المرحّل : ضربٌ من برود اليمن ، سمّى مرحّلاً لأنّ عليه تصاوير رحل .
(٢) تفسير القرطبى ١٨٨٢ ، وتفسير الطّبرىّ ٥/١٢٨ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/١٢٨ . (٤) تفسير القرطبىّ ١٨٨٤ .
(٥) تفسير القرطبىّ ١٨٨٤ . (٦) تفسير القرطبىّ ١٨٨٤ .
(٧) تفسير القرطبىّ ١٨٨٥ . (٨) تفسير القرطبى ١٨٨٥ .

يعنى إلاّ أن يبرئ الأولياءُ ورثةُ المقتول القاتلين ممّا أوجب اللّه لهم من الدّية عليهم[١] .

وهذه هى الحال الثّانية للقتيل وللحكم . قال تعالى : ﴿ فإن كان من قومٍ عدوّ لكم وهو مؤمنٌ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ والمعنى : فإن كان القتيل من قومٍ عدوٌّ لكم كفّارٍ وهو مؤمنٌ ولكنّه لم يهاجر من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فلا دية فيه وإنّما كفّارته تحرير الرّقبة المؤمنة .

ولماذا لم تكن ثمّة ديّة ؟ كيلا يتقوّى بها الكفّار[٢] ومن العلماء من أضاف سببًا آخر وهو أنّ حرمة هذا الّذى آمن ولم يهاجر قليلة[٣].

وهذه هى الحال الثّالثة والأخيرة للقتيل وللحكم . قال تعالى : ﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فديةٌ مسلّمةٌ إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ والمعنى أنّ القتيل إذا كان من قومٍ بين المؤمنين وبينهم عهدٌ مؤكّد و «هذا فى الذّمّى والمعاهَد يُقْتَلُ خطأ فتجب الدّية والكفّارة . قاله ابن عبّاس والشّعبىّ والنَّخَعىّ والشّافعىّ»[٤] وقال ابن عبّاس والشّعبىّ والنَّخعىّ : المقتول من أهل العهد خطأً لا تبالى مؤمناً كان أو كافراً على عهد قومه فيه الدّية كدية المسلم . وهو قول أبى حنيفة والثّورىّ وعثمان البتّى والحسن بن حَىّ ، جعلوا الدّيات كلّها سواء ، المسلم واليهودى والنّصرانىّ والمجوسىّ والمعاهد والذّمّى ، وهو قول عطاء والزّهرىّ وسعيد بن المسيّب . وحجّتهم قوله تعالى : ﴿فديةٌ﴾ وذلك يقتضى الدّية كاملةً كدية المسلم[٥] .

ويلاحظ اشتراط الإيمان فى حق الرّقبة المعتقة فى المرّات الثّلاث ، وكأنّ

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٨٩٣ .

(٢) تفسير القرطبىّ ١٨٩٤ ، وتفسير الطبرىّ ٥/ ١٣١ .

(٣) تفسير القرطبىّ ١٨٩٤ .

(٤) تفسير القرطبىّ ١٨٩٥ .

(٥) تفسير القرطبى ١٨٩٧ .

تحرير الرّقبة المؤمنة من أجل أن تعبد اللّه تعالى مقابل النّفس الإنسانية الّتى أُزْهِقَتْ بطريق الخطأ.

وما الحكم حينما لا توجد الرّقبة المؤمنة ، أو وجدت ولم يستطع القاتل شراءها وعتقها ؟ الجواب فى قوله تعالى : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من اللّه . وكان اللّه عليماً حكيما ﴾ والمعنى : فمن لم يجد الرّقبة ولا اتّسع ماله لشرائها فعليه صيام شهرين متتابعين . حتّى لو أفطر يوماً استأنف . هذا قول الجمهور[١] وقال مالك : وليس لأحدٍ وجب عليه صيام شهرين متتابعين فى كتاب اللّه تعالى أن يُفْطِر إلا من عُذْرٍ أو مرضٍ أو حيض ، وليس له أن يسافر فيفطر[٢] .

ومعنى القول : ﴿ توبةً من اللّه ﴾ تجاوزاً من اللّه لكم إلى التّيسير عليكم بتخفيفه عنكم ما خفّف عنكم من فرض تحرير الرّقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها بإيجابه عليكم صوم شهرين متتابعين[٣] ولم يزل اللّه سبحانه وتعالى عليماً بما فيه مصلحة عباده وخيرهم ، حكيمًا فيما يفرضه من أحكام ويرتضيه من تدابير . ومن مظاهر علم اللّه تعالى علمه جلّ وعلا بحقيقة من قتل أخاه المؤمن خطأ ، ومن ادّعى ذلك . ومن مظاهر حكمته جلّ وعلا قبوله توبة عباده وإرشادهم إلى وسائل التوبة ، ومن ذلك صيام الشهرين المتتابعين لمن لم يجد الكفّارة .

وحينما نتبيّن حديث الآية الكريمة مرّات ثلاثاً عن عتق الرّقبة ، نستطيع أن نفهم شيئاً من حكمة المنهج التربوىّ القرآنىّ الّذى قضى على الرّقّ تدريجاً ، ونجح فى ذلك نجاحاً فريداً، فى القضاء على حقيقة الرّقّ وظاهره معاً . نقول ذلك فى الوقت الّذى يفشل غير المسلمين فى بعض أجزاء الدّنيا من القضاء

(١) تفسير القرطبى ١٨٩٧ .

(٢) تفسير القرطبىّ ١٨٩٨ .

(٣) تفسير الطبرىّ ٥/ ١٣٦ . وتفسير القرطبىّ ١٨٩٨ .

على حقيقة الرّقّ وإن قضوا عليه فى الظّاهر . وهل التفرقة العنصريّة المتغلغلة فى بعض أجزاء الدّنيا سوى رقٌّ غير معلن ؟ .

وبعد حديث الآية الكريمة عن القتل الخطأ تتحدّث الآية الكريمة التّالية عن القتل العمد فإلى :

الآية رقم (٩٣)

قال تعالى :

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

يتعلّق بقتل المؤمن عمداً حقّان اثنان ، حقّ للّه تعالى ، وقد تحدّثت هذه الآية الكريمة فى هذا الحقّ ، وحقّ لورثة القتيل ، وقد تحدّثت الآية الكريمة الثّامنة والسّبعون بعد المائة من سورة البقرة فى هذا الحقّ . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كُتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحرُّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . فمن عُفِي له من أخيه شئٌ فاتّباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان . ذلك تخفيفٌ من ربّكم ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم ﴾ إنّ من حقّ وليّ المقتول أن يقتصّ من القاتل ، وأن يعفو عنه فيقبل الدّية ، وأن يتنازل عن الدّية . إنّ اختيار واحد من الأمور الثّلاثة خاصٌّ بهذه الأمّة . وإنّ قبول الدّية والتّنازل عنها تخفيفٌ من اللّه تعالى ورحمة «لأنّ أهل التّوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك . وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قَوَد ولا دية . فجعل اللّه تعالى ذلك تخفيفاً لهذه الأمّة . فمن شاء قتل . ومن شاء أخذ الدّية . ومن شاء عفا »[1] .

وهذه الآية الكريمة من سورة النّساء تقرّر أنّ من يقتل أخاه المؤمن متعمّداً

(٣) تفسير القرطبى ٦٣٢ .

فجزاؤه يوم القيامة جهنّم خالداً فيها لا يموت فيها ولا يحيى ، وعليه غضب اللّه تعالى ولعنته بمعني طرده من رحمته جلّ وعلا ، واعدّ اللّه تعالى له عذاباً أليماً فى الآخرة ، إضافةً إلى عذاب الدّنيا حينما تأخذه الدولة وتقتصّ منه .

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنّ المتعمّد كلّ من قتل، بحديدةٍ كان القتل أو بحجر أو بعصاً أو بغير ذلك[١] .

ومذهب أهل السُّنّة وهو الصّحيح أنّ لمن قتل مؤمناً متعمّداً توبة . وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ قل يا عبادى الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه. إنّ اللّه يغفر الذّنوب جميعاً . إنّه هو الغفور الرّحيم ﴾

وممّا هو من قبيل القتل على سبيل الخطأ قتل المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى من ظنّوه غير مسلم وأنّه أعلن إسلامه على سبيل التّقيّة . إنّ واجب المؤمنين أن يتثبّتوا وإلى ذلك أشارت .

الآية رقم (٩٤)

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

سبب النّزول

جاء فى سبب نزول الآية الكريمة العديد من الأحاديث والآثار نكتفي

(٢) تفسير القرطبى ١٨٩٩ .

(٣) سورة الزمر ٥٣ .

ببعضها، وهى في مجموعها تدلّ على غلبة ظنّ المؤمنين أنّ معلنى إسلامهم ساعة الخطر إنّما يعلنونه متعوّذين من القتل، وليسوا مؤمنين على الحقيقة. جاء فى صحيح البخارى(١). عن ابن عبّاس قال : كان رجلٌ فى غُنَيْمةٍ له فلحقه المسلمون فقال : السّلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فأنزل اللّه تعالى الآية الكريمة . وروى الحديث الإمام مسلم(٢) والتّرمذى فى التّفسير وقال : هذا حديث حسن صحيح(٣).

وقال البخارى قال حبيب بن عمرة عن سعيد عن ابن عباس قال : قال رسول اللّهﷺ للمقداد : إذا كان رجلٌ مؤمنٌ يخفى إيمانه مع قومٍ كفّار فأظهر إيمانه فقتلته فكذلك كنت تخفى إيمانك بمكّة من قبل . هكذا ذكره البخارىّ معلّقاً مختصراً ، وقد روي مطوّلاً موصولا(٤) روى الحافظ أبو بكر البزّار عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : بعث رسول اللّه ﷺ سريّة فيها المقداد بن الأسود فلمّا أتوا القوم وجدوهم قد تفرّقوا وبقى رجلٌ له مالٌ كثير لم يبرح فقال : أشهد ألاّ إله إلاّ اللّه ، وأهوى إليه المقداد فقتله . فقال له رجلٌ من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد ألا إله إلا اللّه ؟ واللّه لأذكرنّ ذلك للنّبىّ ﷺ . فلمّا قدموا على رسول اللّه ﷺ قالوا يا رسول اللّه ، إنّ رجلاً شهد ألاّ إله إلاّ اللّه فقتله المقداد فقال : ادعوا لى المقداد . يامقداد أقتلت رجلاً يقول لا إله إلاّ اللّه فكيف لك بلا إله إلاّ اللّه غدا . قال فأنزل اللّه تعالى الآية(٥).

وحدّث أسامة بن زيد بن حارثة عن نفسه فقال : بعثنا النّبىّ ﷺ إلى الحُرَقة من جُهَيْنة فصبحنا القوم فهزمناهم . قال : فلحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم ، فلمّا غشيناه قال : لا إله إلاّ اللّه . قال : فكفّ عنه الأنصارىّ فطعنته برمحى فقتلته ، فلمّا قدمنا بلغ ذلك النّبىّ عليه السّلام فقال يا أسامة ، أقتلته بعد ما قال : لا إله إلاّ اللّه ؟ قلت : يا رسول اللّه ، إنّما

(١) ٦/٥٩ .
(٢) انظر أسباب النزّول للواحدى ٢٠٢ و ٢٠٣ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٣٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٣٩ .
(٥) تفسير ابن كثير ١/٥٣٩ .

كان متعوّذا . قال أقتلته بعد ما قال : لا إله إلاّ اللّه ؟ قال : فما زال يكرّرها علىّ حتى تمنيت أنىّ لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[١] .

من هذه الروايات المختلفة ومن غيرها الّتى لم نذكر يتبيّن أنّ هذه مسألةٌ صادفها عددٌ من الصّحابة رضوان اللّه تعالى عليهم ، كما يتبيّن أنّ الّذين واصلوا عمليّة القتل إنّما كانوا يتأوّلون معلنى إسلامهم ساعة الخطر بأنّهم كانوا متعوّذين ، وقد صحّحت الآية الكريمة لهم موقفهم .

ويلفت النظر بشأن معالجة الآية الكريمة هذا الأمر الخطير أسلوبها الواضح الصّريح ، وتدرّجها المنطقىّ البديع ، فى عرضها لحبّات عقد المعنى ، بحيث إنّ كلّ حبّة تأخذ بِحُجْزة الأخرى ، ولا يصحّ لحبّة فى هذا العقد للمعانى أن تأخذ غير موقعها تقديمًا أو تأخيراً .

إنّ الآية الكريمة تبدأ بنداء المؤمنين بأهمّ صفاتهم وهى صفة الإيمان ، وفى ذلك تنبيهٌ إلى أنّ المخاطبين وإن كان قد بدر منهم بعض الهفوات ، ولو كانت قتلاً لنفس مؤمنة على سبيل الخطأ والاجتهاد فى تحرّى الصّواب ، فإنّهم يظلّون مؤمنين ويتمتّعون بحِلْيَةِ الإيمان. إنّ الآية تبدأ بنداء المؤمنين الّذين ضربوا فى الأرض وأوغلوا فى أقطارها جهاداً فى سبيل اللّه تعالى . وما معنى الإيغال فى أرض اللّه تعالى الطّويلة العريضة جهاداً فى سبيل اللّه تعالى ؟ معنى ذلك الاستعداد لبذل الرّوح رخيصةً فى سبيل اللّه تعالي ومن باب الأولى بذل المال. إنّ الآية الكريمة تأمر المؤمنين إذا ضربوا فى سبيل اللّه تعالى أن يتبيّنوا ويتثبّتوا وألاّ يتعجّلوا قتل نفس أعلن صاحبها إيمانه ، لأنّه يصحّ أن يكون صادق الإيمان. قال تعالى : ﴿يا أيها الّذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل اللّه فتبيّنوا﴾ .

ولمّا كان من أعلن إسلامه ساعة الخطر يصحّ أن يكون صادق الإيمان ، وأنّه إنّما أعلن إيمانه لأن الفرصة قد واتته ، ويصحّ أن يكون غير صادق الإيمان، وأنّه إنّما أعلن ذلك حرصاً على السّلامة، ولمّا كانت حقيقة ما في قلب

(١) أسباب النّزول للواحدى ٢٠٦ .

المعلِن لا يعلمها إلاّ اللّه تعالى ، وكانت الحكمة تقتضى افتراض حسن الظّنّ ، فقد نهت الآية الكريمة المؤمنين عن قتل من أعلن إيمانه . قال تعالى : ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند اللّه مغانم كثيرة ﴾ .

ومن البيّن تتابع المعانى وتداركها والبناء الهرمىّ لها بحيث إنّه يستحيل تغيير موضع حبّةٍ من حبّات عقد المعانى .

إنّ الآية الكريمة تنهى المؤمنين عن أن يقولوا لمن ألقى إليهم السّلام وأعلن الدّخول فى دين الإسلام دين توحيد اللّه تعالى : « لست مؤمنا » ومعنى لست مؤمنا أنّ المخاطب كافر . ومن البيّن أنّ الحديث هنا عن أولئك الّذين قتلهم المجاهدون فِعلا . وكأنّ النّهى هنا درسٌ للمجاهدين الّذين قَتَلوا كيلا يعاودوا القتل حتّى يتثبّتوا، وللّذين لم يَقْتُلوا كيلا يتورّطوا فيما تورّط فيه السّابقون .

ومع أنّ اللّه سبحانه وتعالى قد خصّ محمّداً ﷺ وأمّته من بين سائر الأمم بأن أحلّ لهم الغنائم وأكلها ، فإنّ الآية الكريمة تبيّن السّبب الّذى من أجله تورّط بعض أولئك المجاهدين في قتل بعض الّذين قالوا إنّا مسلمون . قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدّنيا ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تعبرّ عن الغنائم الّتى حصل عليها المجاهدون الّذين تأوّلوا إعلان الإيمان تعوّذاً ، تعبرّ عن الغنائم بأنّها عرض الحياة الدّنيا ، بمعنى متعها الرّخيصة الزّائلة بسبب ما لابس عملية الاستحواذ على الغنائم من قتل لنفس ما كان ينبغى لها أن تقتل إلا بعد التأكّد من استحقاقها القتل ، وبسبب غلبة هذا العرض الرّخيص على نفوس أولئك المجاهدين الّذين ينبغى أن يتقدّم فى نفوسهم القتال فى سبيل اللّه تعالى على الحصول على الغنائم .

وكى يتّضح الدّرك الّذى ينحط إليه ذلك العَرَض من الحياة الدّنيا فى الإمكان أن نُنْعِمَ النّظر فى تعبير الآية الكريمة عن غنائم الدّنيا الرّخيصة وبخاصّةٍ

إذا لابستها مثل هذه الظّروف، وفى تعبيرها عن المغانم الكثيرة عند اللّه تعالى للمجاهدين فى سبيل اللّه تعالى حقّاً وصِدْقاً . قال تعالى : ﴿ تبتغون عرض الحياة الدّنيا فعند اللّه مغانم كثيرة ﴾ .

إنّ ثواب المجاهدين في سبيل اللّه تعالى كبيرٌ عند اللّه تعالى ، وقد عبرّ عنه بالمغانم الكثيرة ، وإن البون شاسعٌ بين المغانم الكثيرة عند اللّه تعالى يوم القيامة ، وبين الغنائم فى هذه الحياة الدّنيا وإن كانت كثيرة فإنّ مصيرها إلى الزّوال . إنّ البون إذا كان شاسعاً بين الفرح بالمغانم فى الآخرة وبين الغنائم فى الأولى الّتى كانت وسائل الحصول عليها صحيحة ، فكيف بالبون بين المغانم الكثيرة فى الآخرة وبينها فى الأولى إذا كانت عرضاً من أعراض هذه الحياة الدّنيا ؟ إنّ البون شاسعٌ وكبيرٌ جداً .

وهكذا يتبيّن أنّ فى القول : ﴿ فعند اللّه مغانم كثيرة ﴾ صرفاً لاهتمام المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى إلى المغانم الكثيرة الحقيقية عند اللّه تعالى ، وتحويلاً لذلك الاهتمام عن ذلك الغرض المشبوه . ولاشكّ أنّ الدّرس كبير، والتّنبيه قوىّ ، والوقع أليم للقول خطاباً للمؤمنين : ﴿ تبتغون عرض الحياة الدّنيا فعند اللّه مغانم كثيرة ﴾.

وإذا كان المجاهدون فى سبيل اللّه قد اجتهدوا ورجّحوا جانب القتل دون مرجّح ، وكان ثمّة نصٌّ على الباعث لبعضهم على القتل ، وصرفٌ لاهتمام المجاهدين عن عرض الدّنيا إلى نعيم الآخرة الّذى يعبّر عنه بالمغانم بسبب جوّ القتال والنّصر ، فإنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ كذلك كنتم من قبل فمنّ اللّه عليكم فتبيّنوا ﴾ تعطى الدّليل الفعلىّ على تجاوز أولئك المجاهدين الصّواب إلى الخطأ ، أو الفاضل إلى المفضول . إنّ الآية الكريمة تقول لأولئك المجاهدين المتأوّلين : لقد كنتم قبل الهجرة مثل هؤلاء القوم الآن تكتمون إيمانكم ولا تستطيعون أن تعلنوه حتّى واتتكم الفرصة بعد الهجرة . إنّ هؤلاء الّذين أعلنوا إسلامهم يصحّ أن يكونوا مؤمنين حقّاً مثلكم ، وقد أخفوا إيمانهم مثلكم، وها هي ذى الفرصة قد واتتهم لإعلان إسلامهم بلقائكم ،

مثلما واتتكم الفرصة لإعلان الإسلام بعد الهجرة . أكنتم تحبّون أن يسئ أحدٌ من المؤمنين الظّنّ بكم ويقتلكم بعد أن أعلنتم إسلامكم ظنًا منه أنكم تعلنون الإسلام درءًا للخطر عنكم ؟ بما أنكم تكرهون أن يساء الظّنّ بكم كذلك ينبغى أن تعاملوا الآخرين ، وبما أنكم تكرهون أن يتعرّض لكم أحد بسوء كذلك ينبغى أن تكرهوا ذلك للآخرين .

وإذا كانت جملة : « فتبيّنوا » أوّل أمرٍ فى الآية الكريمة وهى بمعنى التّثبت ، فإنها كذلك آخر أمرٍ فى الآية الكريمة : ﴿ كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبيّنوا ﴾ وبالمعنى ذاته . وهكذا يتكرّر الأمر بالتّبيّن .

إنّ التّبيّن مطلوبٌ أوّلاً وآخرًا ودائماً وأبداً ، وبعد التّبيّن والتّثبت يجب على المجاهدين فى سبيل الله تعالى أن يتصرّفوا فى ضوء تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين .

وينبغى أن يكون للقول : ﴿فمنّ الله عليكم﴾ شدّ للمؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى إلى الله تعالى ، ولفتٌ قويٌّ لانتباههم إلى نعم الله تعالى العظيمة عليهم وآلائه الجسيمة ، ومن هذه النعم أنّ الله سبحانه وتعالى حفظهم من كلّ سوءٍ يصل إليهم عمداً أو عن طريق الخطأ . إنّ المطلوب منهم وقد عاملهم الله تعالى بفضله ومنّه أن يعاملوا عباده جلا علا مستفيدين من فضله تعالى ومنّه عليهم بأن يتبيّنوا ويتريّثوا ويتأكّدوا .

والحقيقة أنّ تتابع حبّات المعانى وتلاحقها ، وتدرّجها إلى القوّة الأشدّ، والمدى الأرحب ، ليذكّرنا بقول أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النّبىّ ﷺ حينما بلغه عن قتل أسامة ذلك الّذى أعلن إسلامه على نحو ما مرّ بنا : «أقتلته بعد ما قال : لا إله إلاّ الله ؟ قال : فمازال يكرّرها علىّ حتّى تمنّيت أنّى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » .

إنّ كلّ ذلك دليلٌ على القيمة الغالية للنّفس المؤمنة الّتى تؤمن بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّدٍ ﷺ نبيّاً ورسولا ، وبالقرآن دستوراً .

ولمّا كانت الآية الكريمة تسبر أغوار النّفوس ، وتغوص في أعماق الأحداث ، وتشير إلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى عالم السّر وأخفى ، فإنّ التّذييل في الآية الكريمة قوة لهذه المعاني . قال تعالى : ﴿ إن الله كان بما تعلمون خبيراً ﴾ وإذا كانت الخبرة تعني الغوص في الأعماق ، والانتفاع ممّا حدث ويحدث ، والاستدلال على ما لم يحدث ، فإنّ في الإمكان أن يقال في معنى التّذييل : إنّ الله سبحانه وتعالى كان ومازال بما نعمل جميعاً ، وفي المقدّمة أولئك المجاهدون في سبيل الله تعالى، خبيراً ، يعلم بواطن الأمور كما يعلم ظواهرها ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

ولمّا كانت الآية الكريمة قد ذهبت بنفوس المجاهدين في سبيل الله تعالى بعيداً كي تطوّعها وتروّضها على التّبيّن والتّثبت فإنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين تعيدان إلى نفوس هؤلاء المجاهدين الاتّزان والاعتدال وتطردان ما قد تسرّب إليها من ظنّ بأنّ جهادها قد ذهب أدراج الرياح ، وأعمالها الصّالحة قد مضت سدى ، وهاتان هما .

الآيتان رقم (٩٥ ، ٩٦)

قال تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

سبب النّزول :

جاء في صحيح البخاري[1] عن «سهل بن سعد السّاعدي أنّه رأى مروان بن الحكم في المسجد فأقبلت حتّى جلست إلى جنبه فأخبرنا أنّ زيد بن ثابت أخبره أنّ رسول الله ص أملى عليه : لا يستوى القاعدون من المؤمنين

(١) ٦/٥٩ .

والمجاهدون فى سبيل الله . فجاءه ابن أمّ مكتوم وهو يُملِّها علىّ فقال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعْمى ، فأنزل الله على رسول ﷺ وفخذه على فخذى فثقلت علىّ حتّى خفت أن تَرُضَّ فخذى ثمّ سرّي عنه فأنزل الله: غير أولى الضّرر » وقد روى من وجه آخر عند الإمام أحمد عن زيد فقال . . . قال زيد بن ثابت : إنّى قاعدٌ إلى جنب النّبىّ ﷺ إذ أُوحى إليه وغشيته السكينة . قال : فرفع فخذى حين غشيته السكينة . قال زيد : فلا والله ما وجدت شيئاً قطّ أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثمّ سرّي عنه فقال : اكتب يا زيد ، فأخذ كتفاً فقال : اكتب: لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون إلى قوله : أجراً عظيما . فكتبت ذلك فى كتف . فقام حين سمعها ابن أمّ مكتوم وكان رجلاً أعْمى فقال حين سمع فضيلة المجاهدين: يا رسول الله ، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ومن هو أعْمى وأشباه ذلك . قال زيد : فوالله ما قضى كلامه - أو ما هو إلا أن قضى كلامه - غشيت النّبىّ ﷺ السكينة فوقعت فخذه على فخذى فوجدت من ثقلها كما وجدت المرّة الأولى ثمّ سرّى عنه فقال : اقرأ فقرأت عليه لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون ، فقال النّبىّ ﷺ : غير أولى الضّرر . قال زيد : فألحقتها فوالله كأنّى أنظر إلى ملحقها عند صدع كان فى الكتف . ورواه أبو داود[1] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّه لا يستوى عند الله تعالى فى المنزلة والثّواب، القاعدون من المؤمنين من غير ذوى الأعذار والمجاهدون فى سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم. وهذا معناه أنّنا بصدد ثلاث فئات ، وبصدد ثلاث درجات ، أعلاها المجاهدون فى سبيل الله بالأموال والأنفس ، تليها درجة القاعدين من ذوى الأعذار، تليها درجة القاعدين من غير ذوى الأعذار. ونستطيع أن نفهم أنّ أصحاب الدّرجة العالية صحّ لهم حسن النّيّة وصلاح العمل ، وأنّ أصحاب الدّرجة الّتى تليها صحّ لهم حسن النّيّة ، وأنّ أصحاب

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٠ .

الدّرجة الأخيرة السّفلى لم يصحّ لهم حسن النيّة ولاصلاح العمل فى مجال الجهاد فى سبيل اللّه تعالى وإنّ كان قد صحّ لهم الإيمان.

وهذه الدّرجات الثّلاث للفئات الثلاث ومنزلة كل فئة إذا كانت مفهومة من القول فى صدر الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضّرر والمجاهدون فى سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم ﴾ فإنّها مصرّحٌ بها بعد ذلك فى الآية الكريمة قال تعالى : ﴿ فضّل اللّه المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاً وعد اللّه الحسنى . وفضّل اللّه المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ﴾ والمعنى أنّ اللّه سبحانه وتعالى فضّل المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا بأموالهم وأنفسهم على القاعدين بعذر درجة . وهذا التّفضيل لأنّ الفئتين إذا كانتا قد اشتركتا فى حسن النّيّة وسلامة القصد فإنّ المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى قد انفردوا بصالح العمل وذلك بالجهاد فعلاً فى سبيل اللّه تعالى .

ولمّا كان ذكر الدّرجة الّتى يفضل بها المجاهدون غير المجاهدين من ذوى الأعذار ربّما كان سبب حزن لذوى الأعذار للمستوى الّذى قد يسبق معه إلى رُوع بعضهم مثل هذا السّؤال : هل لنا مكان فى الجنّة ؟ لذا جاء فى الآية الكريمة على الفور : ﴿ وكلاً وعد اللّه الحسنى ﴾ والمعنى أن اللّه سبحانه وتعالى وعد كلاً من الفريقين الحُسنى ، يعنى الجنّة(١) ومن المعروف أن الجنّة درجات إلى أعلى ، وأنّ النّار دركات إلى أسفل ، وإنّ كلاً من الحديثين التّاليين يبيّن فضل كلٌ من المجاهدين والقاعدين بأعذار . ثبت فى الصّحيحين عن أبى سعيد الخدرىّ أنّ رسول اللّه ﷺ قال : إنّ فى الجنّة مائة درجة أعدّها اللّه للمجاهدين فى سبيله ، ما بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض(٢) وثبت فى صحيح البخارىّ عن أنس أنّ رسول اللّه ﷺ قال : إنّ بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه . قالوا وهم بالمدينة يا

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/١٤٦ ، وتفسير ابن كثير ١/٥٤١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٤١.

رسول الله ؟ قال : نعم . حبسهم العذر[١] .

وبعد أن بيّنت الآية الكريمة الدّرجة الّتى يفضل بها المجاهدون القاعدين من ذوى الأعذار بيّنت الفرق الشّاسع والهُوّة السّحيقة بين المجاهدين فى سبيل الله تعالى وبين القاعدين عن الجهاد بغير عذر . قال تعالى : ﴿ وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ﴾ والمعنى وفضّل الله سبحانه وتعالى المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولى الضّرر وغير أصحاب الأعذار أجراً عظيماً ، وثواباً كبيرا . ثمّ بيّنت الآية الكريمة التّالية ذلك الأجر العظيم بأنّه الدّرجات الرّفيعة ، والمغفرة للذّنوب والرّحمة الّتى تسعهم والّتى تخصّهم .

ونوّد أن نقف عند بعض الألفاظ فى الآية الكريمة من أجل تبيين أبعادها النّائية ومراميها القصيّة .

وأوّل ما يلفت نظرنا نفى استواء هذه الفئات الثّلاث فى الفضل وذلك بناءً على النّيّة والعمل الصّالح . إنّ أصحاب النّيّة الحسنة والعمل الصّالح وهم المجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم أصحاب أرفع الدّرجات وأعلى المستويات . وإنّ أصحاب النّيّة الحسنة فقط وهم ذوو الأعذار أصحاب الدّرجة الوسطى ، وإنّ القاعدين عن الجهاد دون عذر يأتون فى ذيل القائمة .

وبشأن التخلّف عن الجهاد تُستَعْمَل صفة القعود وذلك فى القول : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين ﴾ والمعروف أنّ جملة قعد تدّل على اتّجاه حركة القاعد من أعلى إلى أسفل ، من القيام إلى القعود ، بعكس جملة جلس الّتى تدلّ على الحركة المعاكسة ، من أسفل إلى أعلى ، يقال : كان قائماً فقعد وكان مضطجعاً فجلس . وبهذا يتبيّن أنّ هيئة القعود والجلوس واحدة وينحصر الفرق فى اختلاف الاتّجاه بشأن كلٍّ منهما . ومن البيّن أنّ صفة القعود أبلغ الصفات فى الدّلالة على اتّجاه أولئك القاعدين إلى الرّاحة وإخلادهم إلى الكسل ولهذا

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤١ .

تأخّرت منزلة القاعدين إلى أقلّ الدّرجات وأحطّها .

وعلى الرّغم من شَغْل القاعدين عن الجهاد لأقلّ الدّرجات وأهونها فإنّ الآية الكريمة تصف هؤلاء بالإيمان . قال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين ﴾ وبهذا يتبيّن أنّ القعود عن الجهاد لا ينفى صفة الإيمان ، ويصحّ أن يفهم كذلك أنّ الجهاد من فروض الكفاية إلاّ فى بعض الأحوال فإنّه فرض عَيْن .

ومعنى القول : ﴿ غير أولى الضّرر ﴾ غير أولى الأعذار . وفى ذكر السّبب هنا وهو الضّرر ذكرٌ ضمنىٌّ للمسبَّب وهو العذر ، وبذلك يكون ذكر الضّرر حافزاً للذّهن على أن يتفكّر ويتدبّر .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أشارت ثلاث مرات إلى الجهاد ، فإنّها فى المرّة الأولى فقط نصّت على أنّه فى سبيل اللّه تعالى ، وبذلك اكتفت الآية الكريمة بهذه المرّة عن التّكرار فى المرّتين الأخريين. قال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضّرر والمجاهدون فى سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم ﴾ .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تقدّم المال على الأنفس ، رغم أنّ الأنفس أغلى من المال ، وأنّ الجود بالنّفس يعتبر أقصى درجات الجود . وإنّما كان تقديم المال على الأنفس فى مجال الجهاد فى سبيل اللّه تعالى لأنّ المال ضرورى لمن أراد أن يجاهد بنفسه فضلاً عمّن أراد أن يجهّز غازياً . إنّ المال ضرورى دائماً وأبداً فى مجال الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ، لأنّ من أراد أن يجاهد فى سبيل اللّه تعالى وليس لديه المال الّذى يشترى به السّلاح والّذى ينفقه فى سبيل الوصول إلى ميدان المعركة لا يغنى عنه استعداده لبذل روحه رخيصةً فى سبيل اللّه تعالى . إنّ المجاهد يستطيع بالمال أن يُعِدّ ما استطاع من قوّة ، ويستطيع أن يصل فعلاً إلى ميدان المعركة . وإنّ من أقوى الأدلّة على أهمّيّة المال فى مجال الجهاد رفع اللّه تعالى الحرج فى كتابه العزيز عن أولئك الّذين أتوا إلى المصطفى

ﷺ كى يحملهم معه إلى تبوك فاعتذر إليهم ﷺ بأنّه لا يستطيع أن يحملهم لأنّه لا يجد ما يحملهم عليه من دوابّ فبكوا ، وفاضت أعينهم من الدّمع بسبب قلّة ذات اليد ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى فى سورة التّوبة[1]: ﴿ولا على الّذين إذا ما أتَوْك لتحملهم قُلْتَ لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدّمع حَزَنًا ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ ووراء كلّ ما سبق نحن نستطيع أن نفهم من تقديم المال على النفس فى الآية الكريمة سهولة بذله بالقياس لبذل الإنسان روحه الأغلى من المال . وممّا يدلّ فى القرآن الكريم على قيمة النّفس الأغلى من المال عند صاحبهما قوله تعالى فى سورة التّوبة[2]: ﴿ إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة ، يقاتلون فى سبيل اللّه فَيَقْتُلون ويُقْتلون وعداً عليه حقًّا فى التّوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من اللّه . فاستبشروا ببيعكم الّذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم﴾ إنّ فى تقديم النّفس دليلاً على تقدّمها فى المنزلة.

وممّا يلفت النّظر فى الآية الكريمة أنّها كى تشير إلى الفرق الطّفيف بين درجة المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى ودرجة القاعدين من أولى الضّرر تذكر لفظ درجة بصريح اللّفظ . قال تعالى : ﴿ فضّل اللّه المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وأنّها كى تنبّه إلى الفرق الشّاسع بين المجاهدين وبين القاعدين بغير عذر يجئ فيها القول : ﴿ وفضّل اللّه المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ .

وقد قارنت الآية الكريمة بين المجاهدين وبين القاعدين بغير عذر ، لأنّ محور الحديث هو الجهاد ، وقد كان الطّرفان قادرين على القيام به . وإنّما لم تكن المقارنة بين القاعدين بعذر وبغير عذر لأنّ الأوّلين عاجزون أصلاً ، ولا معنى للمقارنة بين عاجز وقادر ، خاصّةً إذا كان القاعد عن الجهاد بعذر له درجةٌ رفيعةٌ ، ولم يكن للقاعد بدون عذر أىّ قيمة .

---

(١) الآية : ٩٢ .

(١) سورة التوبة : ١١١ .

وحينما نقارن بين الدّرجة الّتى زيدت للمجاهدين على القاعدين بعذر ، وهى درجة مقابل درجة الجهاد بعد الاستواء فى النّيّة الحسنة وبين الأجر العظيم، نتبيّن حفاوة الآية الكريمة بالمجاهدين ، فهم قد فضلّهم اللّه تعالى على القاعدين بعذر درجة ، وفضلهم على القاعدين بغير عذرٍ أجراً عظيماً . ومن البيّن أنّ الدّرجة قريبةٌ من كونها سبباً ومسبّبًا ، أمّا الأجر العظيم فإنّه مسبّب بسبب الدّرجة الّتى ارتقى إليها المجاهدون بالجهاد والّتى رفعهم اللّه تعالى إليها بالثّواب . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتفصل الحديث فى هذا الأجر العظيم . قال تعالى : ﴿ درجاتٍ منّه ومغفرةً ورحمة. وكان اللّه غفوراً رحيماً ﴾ .

إنّ لفظة درجات بدل من الأجر العظيم فى الآية الكريمة السّابقة ، وكأنّ المعنى : فضّل اللّه المجاهدين على القاعدين بعذر درجة ، وفضّلهم على القاعدين بغير عذر درجات ، وكأنّ المعنى كذلك : فضّل اللّه المجاهدين على القاعدين بعذر درجة ولهم أجرهم ، وفضّلهم على القاعدين بغير عذر درجات ولهم أجرهم العظيم.

ولا يقف الأجر العظيم للمجاهدين فى سبيل اللّه تعالى عند الدّرجات الرّفيعة فى الجنّة إنّما يسبق ذلك ويحف به من بين يديه المغفرة ، ويتلو ذلك ويحفّ به من خلفه الرّحمة . قال تعالى : ﴿ درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمة ﴾ وينبغى أن يكون للجارّ والمجرور «منه» كبير دلالة فى كون الدّرجات رفيعةً حقّاً، والأجر عظيماً فعلاً، لأنّ كلّ كلّ ذلك من لدن الغفور الرّحيم الشّكور .

ويقوى التّذييل كلاً من المغفرة الّتى تسبق الأجر العظيم والدّرجات ، والرّحمة الّتى تتلوهما . قال تعالى : ﴿ وكان اللّه غفوراً رحيما ﴾ .

وحينما يكون للمجاهدين فضل درجة الجهاد على القاعدين بعذر ، ويكون للمجاهدين فضل الدّرجات وفضل المغفرة والرّحمة على القاعدين بغير عذر ، نستطيع أن نفهم أنّ للقاعدين عن الجهاد بعذر حظًّا من أجر المجاهدين العظيم والمغفرة والرّحمة بسبب اشتراكهم فى حسن النّيّة مع المجاهدين . ولا

ننسى أنّ هؤلاء القاعدين بعذر يستطيعون أن يجاهدوا بأموالهم فى سبيل اللّه تعالى ممّا يرفع بإذن اللّه تعالى درجتهم ويؤكّد استحقاقهم للفضل من اللّه تعالى وللمغفرة والرّحمة.

ولمّا كان باب الجهاد فى سبيل اللّه تعالى مفتوحاً على مصراعيه إلى يوم الدّين ، وبخاصّة فى تلك الفترة المبكّرة من فجر الدّعوة الإسلاميّة ، ولمّا كان باب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام مفتوحاً على مصراعيه كذلك إلى يوم الدّين بسبب الصّراع الطّبيعىّ بين الحقّ والباطل ، وبخاصّة فى تلك الفترة المبكّرة من فجر الإسلام وحتّى فتح مكّة ، فقد كان تحوّل الحديث إلى الهجرة أمراً طبيعيًا . وإذا كان القاعدون عن الجهاد بعذر قد عذرهم اللّه تعالى ، فإنّ القاعدين عن الهجرة بعذر عسى اللّه تعالى أن يعفو عنهم ، لأنّ المشقّة فى الهجرة أقلّ من الجهاد .

وقد تحدّثت الآيات الكريمة التّاليات فى هذه المعانى فإلى .

الآية رقم (٩٧)

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

سبب النّزول :

عن ابن عبّاس أنّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثّرون سواد المشركين على رسول اللّه ﷺ يأتى السّهم فيُرْمَى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يُضْرَب فيُقْتَل ، فأنزل اللّه : ﴿ إنّ الّذين توفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ الآية[1] ، وعن ابن عبّاس أنّ المشركين قد أخرجوا المسلمين معهم يوم بدرٍ

(١) صحيح البخارى ٦/٦١ وانظر أسباب النّزول للواحدى ٢٠٧ . .

فأصيب بعضهم فقال المسلمون : كان أصحابنا مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت الآية الكريمة فكُتِبَ إلى من بقى من المسلمين بهذه الآية : لا عذر لهم . قال فخرجوا[١] وقال السّدّى : لّما أسر العبّاس وعقيل ونوفل قال رسول اللّه ﷺ للعبّاس : افد نفسك وابن أخيك ، فقال : يا رسول اللّه : ألم نصلّ إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك . فقال : يا عبّاس : إنكم خاصمتم فخُصِمتُم[٢] ثمّ تلا عليه هذه الآية : ﴿ ألم تكن أرض اللّه واسعة ﴾ . رواه ابن أبى حاتم[٣] .

تتحدّث الآية الكريمة عن المؤمنين الّذين لم يهاجروا من ديار الكفر إلى ديار الإسلام ، والّذين تتوفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم بعدم الهجرة وبالتّالى عدم القدرة على تطبيق تعاليم الإسلام بحريّة مطلقة وتقول لهم موبّخة : فيم كنتم فى شأنكم وفى أىّ شئ كنتم من دينكم[٤] ولماذا رضيتم بالدّنيّة فى دينكم ؟ قالوا : كنّا مستضعفين فى الأرض قد سامنا أعداء اللّه الخسف وظلمونا وأذلّونا ومنعونا بكلّ ما أوتوا من طاقة وأُعْطوا من وُسْع أن نمارس شعائر الإسلام بحريّتنا وعلى الوجه المطلوب . وتستمرّ الملائكة فى توبيخها وتأنيبها قائلة لأولئك المستضعفين : ﴿ ألم تكن أرض اللّه واسعةً فتهاجروا فيها ﴾ ؟ ألم تكن هذه الكرة الأرضية واسعةً فتهاجروا فيها وتنتقلوا من ديار الكفر إلى ديار الإسلام فى أثنائها ؟ ألم تكن هذه الأرض الّتى خلقها اللّه تعالى واسعةً كى تتحوّلوا فيها من المكان النّابى بكم والّذى ظلمكم فيه أهله إلى مكان آخر أوسع لكم وأرحب بكم كى تمارسوا بحريّة تامّة شعائر دينكم وتعاليم إسلامكم ؟ .

إنّ لسان حال أولئك المستضعفين الّذين قصّروا فى جنب اللّه تعالى واستمرأوا الذّلّ والهوان يقول : بلى كانت أرض اللّه تعالى واسعةً ولكنّنا تقاعسنا عن الهجرة فيها وقصّرنا فى جنب اللّه تعالى ، فكان الذّل من نصيبنا

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٢ .

(٢) خصمت فلاناً : غلبته فيما خاصمته . اللسان «خصم» .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٢ والحادثة وقعت فى غزوة بدر .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٤٧ .

فى الحياة الدّنيا والخِذلان ، وإنّ لسان الآية الكريمة يقول : ﴿ فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيرا ﴾ وبذلك اجتمع على المستضعفين الّذين رضوا بالذّلّ وتقاعسوا عن الهجرة عذاب الآخرة وسوء المآل ، إضافةً إلى ذلّ الحياة الدّنيا وسوء الحال .

وكما كان فى مجال الجهاد أولو ضررٍ معذورون ، كذلك كان فى مجال الهجرة مستضعفون معذورون بفضل اللّه تعالى وبرحمته ، وإلى هؤلاء وإلى عفو اللّه تعالى ومغفرته أشارت .

الآيتان رقم (٩٨ ، ٩٩)

قال تعالى :

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

تستثنى الآية الكريمة الأولى من العذاب المهين وسوء المصير المستضعفين من الرّجال من كبار السّنّ والمرضى والزّمنى ومن إليهم ، ومن النّساء اللاّتى يفتقرن لمساعدة الرّجال وعون الآخرين ، ومن الولدان بسبب ضعفهم الأكيد. ويلاحظ مجئ هذه الفئات الثّلاث فى القرآن الكريم وفق هذا النّسق ، وفى ذلك تنبيهٌ إلى ترتيب هذه الفئات وفق قوّتها ، وهى قوّةٌ فى حقّ الرّجال هنا مطرودة، وفى حقّ النّساء ناقصة ، وفى حقّ الوالدان منعدمة . وبذلك تشترك الفئات الثّلاث فى صفة الضّعف . وإنّ تمكّن الضّعف من هذه الفئات الثّلاث انتهى بها إلى كونها لا تستطيع حيلةً للخروج ولا تجد وسيلة للفرار بدينها . ولو فرض أنّها استطاعت حيلةً فإنّها لا تهتدى سبيلا ولا تعرف طريقاً كى تضمن الوصول إلى مأمنها فى دار الهجرة .

عن ابن عبّاس رضى اللّه عنهما : إلاّ المستضعفين ، قال كانت أمّى ممّن